ابتسامة أبي

مالك يوسف عجيب

ابتسامة أبي

قصص

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢١م

-٣-

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(بالضرورةِ)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

قصص

ابتسامة أبي

بقلوبٍ مفعمةٍ بالحزن والأسى تلقينا نبأ عزم والدنا مزاولة عمل إضافي مسائي، أدركنا أن هذا يعني حرماننا من صحبته الحلوة في معظم الأوقات التي اعتدنا تمضيتها معاً، سنُحرم حضوره الآسر الذي يضفي على جلساتنا العائلية اليومية نكهة خاصة، سنفتقد أحاديثه الممتعة وحكاياته المشّوقة في الأمسيات والسهرات، سنُحرم من رفقته في نزهاتنا، كما سنُحرم من قبلاته بينما يتفقدنا في أسرّتنا ويتمنى لنا ليلة سعيدة قبيل خلودنا إلى النوم، لن يتاح له الوقت الكافي لمنحنا كل هذه الأشياء الحلوة بعد الآن.

(ما باليد حيلة يا أبنائي**)** قال لنا بنبرةٍ مرحةٍ لم تفلح في إخفاء مرارة ما يكابده من أسى ثم أردف موضحاً قراره الصعب:

- مصاريفنا تزداد يوماً بعد يوم، والمرتّب لم يعد يكفي وعلينا مواجهة صعوبات الحياة بصبرٍ وأمل وكما تعلمون... العمل شرف للإنسان يا أبنائي.

ساعتان فقط كانتا تفصلان بين دوامه الصباحي في معمل النسيج وعمله الإضافي كحارسٍ ليلي، كان يحرص خلالهما على التفرغ كلياً لشؤوننا على حساب راحته وحاجته للاسترخاء من عناء ساعات العمل الطوال... يساعدنا في فروضنا المدرسية، يحادثنا، يشاركنا ألعابنا، ثم يمضي إلى عمله المسائي الذي يمتد إلى ما بعد منتصف الليل، أما يوم الجمعة... فسحتنا العائلية الوحيدة المتبقية فسرعان ما حوله إلى ما يشبه يوم عيد أسبوعي سعى فيه جاهداً إلى تعويضنا عن غيابه بقية أيام الأسبوع بشتى الوسائل الممكنة من نزهات وزيارات عائلية وإقامة حفلات عائلية صغيرة بمناسبات شتى يخترعها اختراعاً، كان لديه على الدوام ذريعة للاحتفال بالتئام شمل الأسرة، وصيته الوحيدة التي لم يكن يمل من ترديدها على مسامعنا كلما وجد الفرصة سانحة كانت **(العلم)**: العلم... أوصيكم أبنائي بالحرص على تحصيل العلم لأنه مفتاح المستقبل... مفتاح الاستقرار والسعادة والأمان، والتزمنا بوصيته أنا وأشقائي وعقدنا العزم جميعاً على أن نكون عند حسن ظنه بنا.

سألته مرة بدافع من فضول وعطفٍ طفولي: كيف تمضي وقتك في الليل يا أبي؟ ألا يضنيك السهر؟ ألا تشعر بالضجر والوحدة؟

أجابني: لا أبداً... أطالع الكتب وأشاهد التلفاز وإن حدث وشعرت بشيء الضجر فيمكنني دعوة أحد زملاء العمل فنشرب الشاي وربما نلعب الشطرنج أحياناً.

فسألته بدافع من قلق هذه المرة: ماذا تفعل في حال حاول لص ما سرقة ما تحرسه؟ هل عليك أن تمنعه بالقوة هل تحمل سلاحاً؟ أجابني بجدية وثقة: أبداً كل ما علي فعله في هذه الحالة هو الاتصال بالشرطة التي سرعان ما ستأتي وتلقي القبض عليه... الهدف من وجودي هو ردع اللصوص عن التفكير بالسرقة وليس مواجهتهم.

طمأنتني أجوبته وخففت من وطأة شعوري بالأسى عليه، وشيئاً فشيئاً... بدأنا نعتاد على الوضع الجديد ونتقبله كأمر واقع لا بدَّ منه على أمل أن تتبدل الحال بعد حين... وطال انتظارنا لسنوات... سنوات عدة مرت على هذه الحال، سنوات تركت آثارها على والدي الذي أنهكته ساعات العمل الطوال فبدا أكبر من سنه بكثير، جلل الشّيب معظم شعر رأسه ولحيته وارتسمت خطوط عميقة على جبهته وحول عينيه، وحدها ابتسامته الودودة

الواثقة لم تتبدل... ظلت طوال الوقت مرتسمة على شفتيه تمنحنا الحب والأمان والأمل.

كنتُ قد بلغتُ السنة الجامعية الأخيرة حين شاءت الصدفة أن اكتشف السرّ الذي حرص والدي على إخفائه عنا طويلاً، حدث ذلك عندما كُلفتُ مع مجموعة من زملائي بإجراء دراسة ميدانية للفن المعماري في دمشق القديمة فقمنا ذات مساء بجولة ميدانية في شوارع دمشق وحاراتها القديمة، سجلنا ملاحظاتنا والتقطنا الكثير من الصور التوثيقية ورسمنا بعض المخططات الهندسية ثم تفرقنا مأخوذين بروعة مدينتنا العريقة وسحرها الآسر، أثناء مروري في طريق عودتي بالقرب من أحد أفران الخبز وقعت عيناي على مشهد كاد يفقدني صوابي... عند باب الفرن كان ثمة شاحنة محملة بأكداس من أكياس الطحين ومجموعة من العمال يقومون بنقل الأكياس إلى داخل الفرن بهمةٍ ونشاط... كان بينهم، إنه أبي... رغم غبار الطحين الأبيضً الذي عفّر وجهه الأسمر وذراعيه العاريتين وحوّل ما بقي من شعره الأسود إلى لون أبيض باهت استطعت تمييزه على الفور دون عناء... إنه هو... إنها ابتسامته العذبة ذاتها تأبى أن تفارق

شفتيه حتى وهو ينوء تحت ثقل كيس الطحين، مشاعر شتى انتابتني في تلك اللحظة... كدت أركض نحوه وأحمل كيس الطحين عنه... شعرت برغبة في معانقته وتقبيل جبينه المندى بقطرات العرق... وددت أن أجثو أمامه وأقبل يديه الخشنتين، لكنني لم أفعل... تمالكت نفسي ومضيت في طريقي والدموع تنهمر على وجنتيّ، تذكرتُ ذاك الحديث الذي دار بيني وبينه منذ سنوات، حديثه عن مطالعة الكتب ومشاهدة التلفاز ولعب الشطرنج أثناء ساعات السهر الطويلة... كم هو مؤلم هذا السرّ الذي أخفيته عنا يا أبي، لقد أدركتُ سرّ شغفك بالعلم وإلحاحك الدائم بضرورة تحصيله.

خلال الشهور التالية حتى تخرجي من الجامعة كابدت أشد العناء في كتمان سرّي الخطير، كنت أواظب على الدراسة حتى موعد عودته من العمل بعد منتصف الليل... أستقبله بالقبلات وأحضّر له العشاء وأجالسه لبعض الوقت ثم أتمنى له ليلة سعيدة وأنصرف إلى غرفتي فأرقد في سريري ساهماً مفكراً في عظمة هذا الإنسان الذي آثر إخفاء طبيعة عمله الشاق عنا لسنوات رأفة بمشاعرنا الغضة.

تخرجتُ من الجامعة بمعدل علامات جيد جداً أهلّني للحصول سريعاً على وظيفة محترمة، وجاء اليوم الذي طالما انتظرته بفارغ الصبر... يوم حصولي على مرتبي الأول.

حين دخلتُ البيت، كان والدي مستلقياً يأخذ قسطاً من الراحة حتى موعد ذهابه إلى عمله الإضافي، توجهتُ نحوه مباشرة، قبّلت جبهته ثم أمسكت بكفيه فقبلتهما وضممتهما إلى صدري ووضعت النقود فيهما وأنا أهمس في أذنه بكل ما أوتيت من حب وحنان:

- بابا... قد آن لهاتين اليدين الطاهرتين أن تستريحا من عناء حمل أكياس الطحين... حسبهما نسج وغزل القطن،نريد أن نسعد بوجودك بيننا.

فوجئ بإشارتي إلى حقيقة عمله فاستوى جالساً وحدّق في عينيّ بتعجب متمتماً وقد فارقت الابتسامة شفتيه:

- منذ متى تعرف يا بني؟ أجبته بخجل:

- ليس منذ وقت طويل... كان من الضروري أن أعرف ويعرف الجميع حجم التضحية التي بذلتها لأجلنا، لقد

أديت واجبك وأكثر وآن لك أن تجني ثمار تعبك. أشرقتْ الابتسامة على وجهه من جديد، مسح على رأسي بحنان وقال لي:

- لا سعادة في الدنيا تضاهي سعادة الفلاح برؤية غراسه تثمر ثماراً يانعة.

* * *

حكاية أبي الملح

كنتُ في الصف الخامس الابتدائي عندما التحق بصفنا طالب جديد لفت انتباه الجميع بلون بشرته الأسمر الغامق وشعره الأجعد، عرفنا لاحقاً إنه وافد من جمهورية السودان الشقيق.

إضافةً لملامحه الإفريقية كانت لهجته غريبة عنا بعض الشيء، وكذلك اسمه... منصور أبو الملح.

بدا منصور فتىً طيباً ومجتهداً فكسب احترام الجميع وودّهم بسرعة، وجمعتني به صداقة نشأت بدايةً بدافع فضولي للتعرف على أحد أبناء هذا البلد العربي الإفريقي الذي طالما سمعت وقرأت عن مساحته الكبيرة وطبيعته الرائعة وأرضه الخيّرة حتى سُمّي (سلة غذاء العرب).

وبالفعل فقد عرفتُ من منصور الكثير مما لم أكن أعرفه عن السودان الذي تركه بحكم عمل والده في سفارة بلده في دمشق، كما ساعدته في التعرف على كل ما يتوجب عليه معرفته عن بلدنا.

وتوطدت صداقتنا مع الأيام من خلال الزيارات المتبادلة التي أتاحت لكلينا التعرف على أسرة الآخر، ذات مرة وخلال إحدى زياراتي له، خطر لي أن اسأله عن أصل كنيته الغريبة، ضحك صديقي وقال لي:

- لطالما أربكني هذا السؤال نظراً لطول الشرح الذي يستوجبه الجواب عنه، وأقترح أن تسمع الجواب من الشخص الأجدر بالإجابة عنه، هيا بنا لنسمع من والدي حكاية كنيتنا الغريبة.

امتثلتُ لرغبته فغادرنا غرفته إلى البهو حيث كان والده يقرأ صحيفةً، وضعها جانباً عند دخولنا مرحّباً ودعانا للجلوس، بادره منصور بالقول:

- صديقي يسأل عن أصل كنيتنا الغريبة واقترحت أن تتولى مهمة الإجابة، هلا رويت لنا حكاية أبي الملح يا أبي؟

ابتسم والده وقال لي بلهجته السودانية الحلوة:

- على الرحب والسعة يا بني... لطالما كانت قصة أبي الملح مدعاة اعتزاز لعائلتنا ومن دواعي سروري أن أرويها لك، رشف رشفةً من فنجان قهوته ثم تابع:

- لعلك تعلم يا بني إن الكنية تأتي غالباً تبعاً لاسم أحد أجداد العائلة أو لعلامةٍ فارقةٍ تميز أحدهم كالمهنة أو الشكل وما إلى ذلك، بخلاف كنيتنا التي لزمتنا بسبب قصة قديمة وقعت منذ عشرات السنين... قبل ولادتي حتى.

بطلها شابٌ كان في مقتبل العمر اسمه صافي، كان يعمل بالزراعة والصيد كمعظم أبناء قريته الواقعة في منطقة الغابات الاستوائية بالقرب من بحيرة صغيرة يغذيها أحد فروع نهر النيل، حيث تتنوع الحياة البرية بكافة أشكالها النباتية والحيوانية، فتجد فيها الحيوانات العاشبة كالغزلان وحمر الوحش، والمفترسة كالأسود والنمور وغيرها.

بدأت القصة عندما أخذت أعداد الحيوانات في الغابة بالتناقص بسرعة دون سبب واضح، عُزي الأمر في البداية إلى موجة الجفاف التي أصابت مناطق واسعة من البلاد على مدى عامين متتاليين، ولكن هذا التفسير سقط باستمرار تفاقم الظاهرة رغم انحسار موجة الجفاف وتساقط الأمطار الغزيرة في الموسم التالي.

وتأثرت حياة الكثير من السكان نتيجة هذه الظاهرة باعتبار أن الحيوانات هي أحد أهم مصادر دخلهم من غذاء وجلود وغيرها.

لم تكن المشكلة تخصّ قرية أو عدة قرى فقط بل العشرات وربما المئات منها المنتشرة في أنحاء الغابة، وسرعان ما تدخلت الحكومة فأرسلت فريقاً متخصصاً لدراسة الظاهرة الغريبة والبحث عن أسبابها، وبذل هذا الفريق جهوداً متواصلة على مدار أشهر من البحث والاستقصاء اكتشف خلالها أن الحيوانات تهاجر من المنطقة باتجاه الجنوب بشكل جماعي إلا أنه عجز في النهاية عن تحديد سبب واضح لهذه الهجرة الغريبة.

ثم وصل فريق آخر مدعّم بخبراء أجانب أحضروا معهم معدات حديثة متطورة فأقاموا في المنطقة لفترة طويلة بدا خلالها أن نتيجة جهودهم لن تختلف عما توصل إليه سابقيهم. بدا ذلك واضحاً من خلال إمارات الحيرة والعجز المرتسمة على وجوههم.

كان صاحبنا صافي من أكثر الناس تضرراً بتناقص أعداد الحيوانات، فقد انقطع مصدر رزقه الرئيسي، فقرر أن يحاول كشف سرّ الظاهرة بطريقته الخاصة.

في صباح أحد الأيام أخبر أهله أنه سيقوم برحلة صيد طويلة ومضى نحو أعماق الغابة، على غير عادته، لم يحزم أمتعته ولم يتزود بزاد، أخذ معه سكيناً كبيراً فقط.

كانت تجول بخاطره فكرة مفادها أن الطريقة الأمثل لاكتشاف سرّ ما حدث للحيوانات هي الدخول إلى عالمها ومحاكاة طريقة حياتها اليومية ما أمكن، أراد أن يعيش كأحد حيوانات الغابة لعله يعثر على السبب الذي جعل الحياة فيها غير ممكنة.

وهكذا... أشاد من أغصان الأشجار خيمة عند ضفة النهر وراح يمضي أيامه معتمداً على موارد الغابة في تأمين احتياجاته، فاقتصر طعامه على ثمار الأشجار البرية وجذور النباتات وما شابه.

كان الأمر صعباً في البداية ولكنه راح يعتاده مع مرور الوقت مستغلاً خبرته في الحياة البرية، وبعد مضي أسبوعين على هذا الحال لم يكن قد توصل لأي نتيجة سوى شعوره ببعض الضعف والوهن... ولكنه أصر على الاستمرار، ثم خلال الأيام التالية بدأ يكتشف حاجته الماسة لشيء لم يخطر له على بال.

كان بإمكانه تأمين كل ما يسد به رمقه من كافة ضروريات الحياة من ماء وغذاء، ولكنه اصطدم بعجزه عن الحصول على أحد أبسط حاجات الكائن الحي... إنه الملح، تذكر أنه قد سمع مرّة أن الكثير من الحيوانات البرية تحصل على حاجتها من الملح الضروري لأجسامها عن طريق لعق الصخور ولكنه كان يعلم بخبرته الطويلة أن بيئته تكاد تكون خالية من أية صخور فأرض الغابة بأكملها ترابية رخوة.

ولبث أسبوعاً آخر يقاوم شهيته المتزايدة للملح، ولكنه في النهاية اقتنع بأن حاجة جسده إلى الملح قد تكون هي سبب الوهن الذي يتسلل إليه يوماً بعد آخر، فقرر العودة قبل أن يسوء وضعه الصحي أكثر.

وفور عودته إلى بيته سأل عن الخبراء الذين تركهم في القرية فقيل له بأنهم قد غادروا إلى قرية مجاورة، فاستحمّ سريعاً وتناول وجبةً من اللحم المملّح ثم توجه إلى القرية المجاورة والتقى كبير الخبراء.

راح يقصّ عليه خلاصة التجربة التي خاضها في الغابة... استمع الخبير بشيء من اللامبالاة بدايةً إلى أن وصل صافي في

حديثه إلى النتيجة التي توصل إليها حول الملح، حينها ارتسمت معالم الجدية والاهتمام على وجه الخبير وراح يمطر صافي بوابل من الأسئلة ويستمع لأجوبته عنها بكل اهتمام، ودهشة أيضاً، وفي النهاية شكره وودعه مؤكداً أنه سيلتقيه ثانيةً.

وعلى الفور... طلب كبير الخبراء اجتماعاً عاجلاً لكامل فريقه وأطلعهم على ملخص قصة صافي طالباً منهم البدء فوراً بالبحث انطلاقاً من هذه النتيجة، وتوزع الخبراء في أرجاء الغابة بعد أن تزودوا بأجهزة تحليل المياه والتربة.

مرت أيامٌ ظن معها صافي أن جهوده قد ضاعت هباءً وأن تجربته كانت بلا طائل، إلى أن فاجأه الخبير يوماً بزيارة غير متوقعة، شكره بحرارة على المساعدة التي قدمها وطلب منه أن يحضّر نفسه للسفر معه إلى العاصمة في اليوم التالي ممتنعاً عن توضيح الغاية من السفر بذريعة أن ذلك سيفسد المفاجأة. ولم يجد الشاب بداً من تلبية رغبة الخبير.

وفي اليوم التالي، وبعد سفر مضنٍ لساعات طويلةٍ، شاهد صافي العاصمة الخرطوم لأول مرّة في حياته ومباشرة، اصطحبه

الخبير إلى مكان لم ير له مثيلاً، دخلا قاعة كبيرة تغص بالحضور، أخذ صافي مكانه بينهم على أحد الكراسي كما طلب منه الخبير الذي سرعان ما غاب في مكان ما منشغلاً ببعض شؤونه بينما لبث صافي يراقب ما حوله بانبهار وتوجس إلى أن أُعلن عن وصول الوزير الذي أخذ مكانه في صدر القاعة.

عمّ الصمت القاعة للحظات ثم دُهش صافي لرؤية رفيقه الخبير يعتلي المنبر فيرحب بالحضور ويشرع في الحديث عن الظاهرة البيئية التي ألّمت بمنطقة الغابات:

أيها السادة... كنا جميعاً في أشد الحيرة إزاء هذه الظاهرة وكنا قد وصلنا إلى حافة اليأس عندما قدم لنا أحدهم المساعدة بطريقة إبداعية، لقد اتبع هذا الإنسان الريفي في البحث عن سبب الظاهرة منهجاً غاب عنا جميعاً، حين جعل من نفسه ولأسابيع عدة حقلاً لتجربة نادرة حاكى فيها حياة الحيوانات في الغابة فتوصل إلى نتيجة بالغة الأهمية كانت بمثابة طرف الخيط الذي أمكننا من الوصول إلى لب المشكلة ومنه انطلقنا إلى الحل.

قمنا بتحليل مياه النهر والبحيرة فاكتشفنا فيها نقصاً غريباً في الأملاح، وخاصة ملح الطعام، نتائج تحليل التربة على ضفاف البحيرة أوصلتنا إلى نفس النتيجة، لقد كانت الأملاح التي يحملها النهر أثناء جريانه من مناطق بعيدة فتترسب على ضفاف البحيرة عند المصب هي المصدر الوحيد لحيوانات الغابة للحصول على حاجتها من ملح الطعام.

ولم يطل بنا الأمر حتى توصلنا إلى معرفة سبب هذا التغير المفاجئ، لقد تم منذ سنوات بناء سد كبير في أعلى النهر ما جعل معظم الملح المنحل في الماء يترسب في بحيرة السد بدل أن يتابع جريانه نحو البحيرة عند المصب وهذا ما جعل الحيوانات تهجر الغابة متجهة نحو بحيرة السد أو إلى مناطق أخرى سعياً وراء الملح.

الآن وبعد وصولنا إلى سبب هذا الخلل البيئي صار بإمكاننا إيجاد حل مناسب لإعادة الأمور إلى طبيعتها وهذا ما يعكف الخبراء حالياً على إنجازه في أقصى سرعة.

هنا نزل الخبير عن النبر وتقدم إلى حيث يجلس صافي فأخذه بيده وصعد به إلى المنصة وقدمه للحضور قائلاً:

الآن أسمحوا لي أن أقدم لكم الرجل الذي توصل بفطرته السليمة إلى ما عجزنا عنه جميعاً بكل الإمكانيات العلمية والتقنية المتاحة لنا.

وصفق الحضور طويلاً لصافي الذي أذهلته المفاجأة وخصوصاً حين تقدم منه الوزير فصافحه بحرارة وشكره على مبادرته مقدماً له مكافأة مجزية.

ومنذ ذلك اليوم الحافل في حياته... اعتاد أهل المنطقة على مناداة والدي - جدّ صديقك منصور - باسم صافي أبو الملح.

ختم والد صديقي حكاية كنيتهم الغريبة.

* * *

إرادة وتضحية

حتى الخامسة عشرة من عمره، عاش تيمٌ كجميع أقرانه من الأطفال، ونشأ في ظل رعاية والدين عطوفين لم يدّخرا جهداً في سبيل تأمين كلّ أسباب السعادة له ولشقيقيه الصغيرين، في تلك السّنة تعرّض تيم لحادثٍ مؤلم غيّر مجرى حياته، وذلك عندما سقط عن شجرة عالية كان يحاول تسلقها أثناء رحلة مدرسية، فلبث في المشفى عدّة أسابيع تحت العلاج نظراً لإصابته بعدة كسور ورضوض في أطرافه بالإضافة لإصابة بليغةٍ في رأسه.

لم تكن ثمة مشكلة بالنسبة للكسور والرضوض باعتبارها قابلة للشفاء بعد أسابيع، المشكلة كانت في تلك الإصابة التي تلقاها على رأسه، إصابة شديدة أدّت لنتيجة قاسية، لقد أفقدته إحدى أهم حواسّه... حاسّة السمع.

وبالرغم من محاولات الأطباء الحثيثة للحيلولة دون ذلك إلا أنّ جهودهم باءت بالفشل وأبلغوا والديه بالحقيقة المحزنة:

إنّ استعادة تيم قدرته على السمع أمرٌ شبه مستحيل... على الأرجح أنه سيمضي بقية حياته أصمّاً، وعليه متابعة حياته متعايشاً مع هذا الواقع الصعب على أن يراجع المشفى بين الحين والآخر لمراقبة وضعه أملاً في العثور مستقبلاً على طريقة ما لعلاج حالته... كان وقع الخبر مؤثراً جداً.

يوم خروجه من المشفى وعودته إلى المنزل بعد طول غياب، حرص أفراد أسرته على مواساته وبثّ بعض الأمل في نفسه الحزينة، كتبت له والدته على دفتره الصغير الذي صار يحمله دائماً كبديلٍ عن حاسته التي فقدها:

- الحمد لله على سلامتك يا بني ونشكر الله على نجاتك من هذا الحادث الذي كان من الممكن أن يؤدي لعواقب أسوأ من ذلك بكثير... إننا جميعاً متعاطفون معك وندرك مدى صعوبة الأمر بالنسبة لك ولكنّ الأطباء قالوا أن الطب يتطور بسرعة كبيرة والاكتشافات الطبية تتوالى كل يوم، ما يمنحنا الأمل بإيجاد طريقة ما لعلاج حالتك مستقبلاً، وثق أننا لن ندّخر جهداً في سبيل ذلك، ولكن حتى ذلك

الحين علينا أن نتأقلم مع هذا الوضع وأن تتابع حياتك، ودراستك خصوصاً، بشكل طبيعي وتأكد أننا كلنا معك.

قرأ تيم كلمات والدته وأدرك مدى الألم الذي يعتصر قلبها ففاجأها بابتسامة قائلاً: لا عليك يا أمي، سأبذل ما بوسعي لتقبّل ما جرى، وأدرك أن العواقب كان يمكن أن تكون أسوأ من ذلك... كان من الممكن مثلاً أن أفقد بصري أيضاً، والحمد لله أن هذا لم يحدث وأعدك بألا أدع ما جرى يؤثر على دراستي، ثم تابع ممازحاً أمه التي سالت دموعها تأثراً: ألا تعرفين يا أمي أنّ الموسيقي العالمي الشهير بيتهوفن قد أبدع أروع أعماله الموسيقية بعد أن أصيب بالصمم؟

فوجئ والداه بمعنوياته المرتفعة وسرّا بذلك كثيراً.

وخلال بضعة أيام كان تيم قد عاد إلى مقاعد الدراسة، ولكن ليس في مدرسته بل كان عليه الالتحاق بمعهد خاصٍّ بذوي الاحتياجات الخاصة من أمثاله، حيث تتوافر الوسائل التعليمية التي تناسب أوضاعهم، كان قد ازداد تصميماً على تحقيق النجاح فاندفع نحو الدراسة بعزيمةٍ أكبر، كان يدرك

أنّ عليه بذل جهد مضاعف لتعويض ما فاته خلال الأشهر الماضية، وسرعان ما برّ بوعده لوالديه، فأدهش الجميع بقدرته خلال أشهر فقط على إتقان ما يعرف بطريقة قراءة الشفاه حيث غدا قادراً على فهم ما يقول محدّثه بمجرد مراقبته لحركة شفتيه فاستغنى عن الدفتر والقلم، ويوماً بعد آخر راح يثبت للجميع أنّ ما جرى لم يؤثر إطلاقاً على تفوّقه، بل جعل منه حافزاً إضافياً له، كان همّه الأول هو أن يبدد سحابة الحزن التي تخيم على أسرته منذ إصابته.

وهكذا... مضت أعوام على وقوع الحادث، لم يكفّ والداه خلالها عن مراجعة أهم المشافي والمراكز الطبية بحثاً عن أي بصيص أمل قد يعيد لولدهم الحبيب حاسة السمع، إلى أن منحهما أحد الأطباء يوماً هذا الأمل عندما أخبرهما بأن أحد المشافي الكبرى قد جُهز بتقنية حديثة قد تحقق النتيجة المأمولة، ورغم أنّ الطبيب قد بين لهما بأن فرصة النجاح غير مؤكدة بالإضافة إلى الكلفة الباهظة لهذه العملية الجراحية وخصوصاً بالنسبة لوضع الأسرة المادي الصعب، إلا أن الأمل أنعش قلبيهما اليائسين فقررا التمسك به والمحاولة مهما كلف الأمر.

عزم والد تيم على اقتراض المبلغ اللازم لإجراء العملية وباشر بالإجراءات اللازمة لها، لكن تيم الذي كان قد غدا في الصف الثالث الثانوي كان له رأي آخر... حيث فاجأ والديه برفضه إجراء العملية متذرعاً بحرصه على التفرغ للاستعداد لامتحان الشهادة الثانوية، أصرّ على تأجيل الموضوع لما بعد الامتحان، ولم يجد والداه بدّاً من الرضوخ لمشيئته.

انتهى الامتحان وأُعلنت النتائج، وكما كان منتظراً فقد حصل تيم على مجموع ممتاز يؤهله لاختيار أي فرع جامعي يريد فلم يتردد في اختيار دراسة الطبّ.

ثم ما لبث أن جعل من هذا الاختيار ذريعةً أخرى لتأجيل إجراء العملية لوقت لاحق مبرراً موقفه لوالديه الحريصين على إجرائها بأقرب وقتٍ بأن السنة الأولى في كلية الطب بالغة الأهمية وتحتاج لجهدٍ مضاعف، وامتثل الوالدان لرغبة ابنهم العزيز مرةً أخرى.

وهكذا... لم يعدم تيم الوسيلة لتأجيل العملية من عام لآخر متذرعاً بذرائع شتى بدت أحياناً غير مقنعة لوالديه

اللذين احتارا في سرّ إصراره على المماطلة بدل تلهفه للشفاء من علّته.

كان تيم قد اتخذ قراره منذ اللحظة التي علم فيها بالكلفة الباهظة لعمليته، كان يعلم أنّ مرتب والده الشهري بالكاد يكفي لسد حاجيات الأسرة الكبيرة من طعام ولباس ونفقات دراسة له ولشقيقيه، فمن أين له أن يستمر في تأمين كل ذلك إذا ما اقترض ذلك المبلغ الكبير الذي سيقتطع من مرتبه لعدة سنواتٍ قادمةٍ.

وكان حب والديه له وتعاطفهما معه إضافةً إلى تفوقه المميز في دراسته يمنعهما من ممارسة الضغط عليه، فتركا له الخيار لتحديد الوقت الذي يراه مناسباً لإجراء العملية... وكم طال انتظارهما حتى جاء ذلك الوقت.

كان ذلك بعد مضي عامين على تخرجه من الجامعة، حيث كان قد غدا طبيباً يمارس مهنته في أحد أشهر المشافي وبدأ اسمه يلمع كأحد أفضل الأطباء في اختصاصه الوثيق الصلة بعلّته.

حين زفّ لأسرته في أحد الأيام بشرى غير متوقعة مفادها أنه قد توصّل بعد أبحاثٍ طويلةٍ بالتعاون مع بعض زملائه إلى تقنية حديثة شبه مضمونة النتائج لعلاج من هم بمثل حالته، والأهمّ هو أنه سيكون أول من سيخضع لهذه الطريقة في العلاج بعد أيام... وعمّ الفرح والأمل الجميع.

وفي اليوم المحدد لإجراء العملية دخل تيم غرفة العمليات مفعماً بالأمل وسط دعاء محبيه له بالشفاء، فيما أمه لا تنفك تلاحق زملائه الأطباء وتوصيهم ببذل قصارى جهدهم.

وبعد انتهاء العملية، لبث جميع أفراد أسرته مع مجموعة من أصدقائه في المشفى حتى صباح اليوم التالي بانتظار استيقاظه من تأثير المخدر.

في الصباح الباكر كان تيم يدندن بمرحٍ مع صوت فيروز المنبعث من المذياع:

أمـــي يـــا ملاكـــي يـا حبـي البـاقي إلى الأبـد

ولا تـــــزل يـــــداك أرجـوحتي ولا أزل ولـد

وانهمرت دموع الجميع فرحاً بالنجاح الذي لم يكن يعني استعادة تيم قدرته على السمع فحسب بل يعني أيضاً إعلان اسم الطبيب تيم كمخترع لتقنيةٍ جديدةٍ ستمنح الكثيرين من الصمّ فرصةً لاستعادة سمعهم بكلفةٍ مقبولةٍ وتجنبهم مرارة التجربة التي مرّ بها.

* * *

الصديق المعلّم

مذ تعلمت القراءة والكتابة، واظبت على متابعة مجلة شهرية للأطفال كان والدي يحرص بداية كل شهر على تزويدي بعددها الجديد، فأستمتع بقراءة قصصها الحلوة وأنهل من المعلومات القيّمة التي تتضمنها.

مرة بعد أخرى كانت تلفت انتباهي على صفحاتها مساهمات قيّمة من شعر ومعلومات عامة وغيرها تعود لمساهم دائم في المجلة من مدينة حلب اسمه ماهر سليم، جميعها تدل على ذكاء صاحبها وسعة اطلاعه، كان يكبرني بعام واحد، رغبت في التعرف عليه، فأرسلت له رسالةً على عنوانه المدون أسفل إحدى مساهماته، عرّفت فيها بنفسي وعبّرت له عن رغبتي بمصادقته، وسرعان ما رد عليّ ببطاقة بريدية تزينها صورة جميلة لقلعة حلب دوّن عليها بخطه الجميل رسالة جميلة أبدى فيها ترحيبه بصداقتي.

ومنذ ذلك اليوم صرنا أصدقاء، وتواصلت فيما بيننا الرسائل التي كانت الوسيلة الوحيدة للتواصل آنذاك، حيث لم تكن حينها وسائل الاتصال الحديثة كالهاتف والشابكة وغيرها متوفرة كما هو الحال الآن.

ومن خلال تلك الرسائل تعرّفنا على بعضنا أكثر فأكثر واكتشفنا القواسم المشتركة التي تجمعنا، كاهتماماتنا الثقافية والعلمية وشغفنا بلعبة الشطرنج ومتابعة أخبار الرياضة.

ومع مرور الأيام ترسّخت صداقتنا أكثر وازددت إعجاباً بذكائه وثقافته واجتهاده، إضافة إلى تفاؤله الدائم ومرحه الذي كان يزيّن رسائله بالنوادر والمعلومات الطريفة، كنت فخوراً بصداقته وتعلّمت منه الكثير، هو الذي حثني وشجعني على إرسال مساهمتي الأولى إلى تلك المجلة والتي كانت عبارة عن قصة قصيرة تتحدث عن أهمية الحفاظ على البيئة، هذه القصة التي كانت بوابة دخولي عالم الكتابة والأدب لتتوالى بعدها مشاركاتي في تلك المجلة وسواها من المنشورات.

وحتى عندما غدا الاتصال الهاتفي متاحاً بعد سنوات، لم تنقطع الرسائل بيننا، كانت وسيلتنا المفضلة للتواصل ولكن لقاءنا

الأول ظلّ مؤجلاً لأسباب خارجة عن إرادتنا بالرغم من عمق صداقتنا إلى أن التحقنا بالجامعة، كنت في السنة الجامعية الثانية حين دعاني لحضور حفل تكريم له بمناسبة حصوله على جائزة في مسابقة للشعر.

سررت كثيراً بالنجاح الذي حققه صديقي ورأيت أنه قد آن الأوان لهذا اللقاء الذي انتظرناه طويلاً فأبلغته موافقتي على الدعوة واتفقنا على موعد ومكان اللقاء عند نافورة كبيرة في إحدى الحدائق العامة وسط مدينة حلب.

انطلقتُ إلى الموعد يدفعني الشوق للقائي الأول بأحد أقدم أصدقائي والرغبة بالتعرف على إحدى أقدم المدن في العالم، المدينة التي طالما سمعت عن جمالها وعراقتها، وفور وصولي إلى حلب اهتديت إلى الحديقة فتوجهتُ مباشرةً إلى النافورة التي تتوسطها ورحت أبحث عن شخص ما يمكن أن يكون هو صديقي ماهر الذي امتنع عن إعطائي أية علامة محددة للتعارف، فحتى ذلك الوقت لم أكن أعرف عن شكله سوى ملامح ذلك الطفل الجميل الذي مازلت احتفظ بصورته مذ أرسلها إلي في بداية تعارفنا، ثم أصرّ فيما بعد وعلى مدار سنوات

صداقتنا على عدم تبادلنا الصور التذكارية، قائلاً أنه يفضل أن نترك لمخيلتينا أن ترسما صورة كل منا في ذهن الآخر حتى تحين فرصة اللقاء، كانت أفكاره تبدو غريبةً أحياناً وربما كان هذا أحد أسباب إعجابي به.

انتظرت قرب النافورة لبعض الوقت مترقباً وصوله بين لحظة وأخرى، وطال انتظاري حتى بدأ القلق يساورني، كاد اليأس يدركني حين تقدم مني شاب على كرسي متحرك خاص بذوي الاحتياجات الخاصة كنت قد لاحظت وجوده في المكان منذ بعض الوقت وقال لي:

- مرحباً... أرى أنك هنا منذ بعض الوقت وتبدو غريباً عن المدينة، لعلك تنتظر أحدهم، هل بوسعي مساعدتك؟

أجبته بلطف: أصبت... إنني على موعد مع أحد الأصدقاء ويبدو أنه قد تأخر قليلاً... شكراً على اهتمامك.

سألني: ما اسم ذلك الصديق... لربما أعرفه؟

فأجبته مازحاً: اسمه ماهر... لعلك تعرف كل أبناء المدينة؟!

أجابني بثقة: نعم... تقريباً، ثم مد يده مصافحاً وهو يقول:

- أهلاً بك في حلب... أنا من تبحث عنه... صديقك ماهر سليم.

عقدت الدهشة لساني للحظات، فصافحته بذهول ثم عانقته مردداً: أهلاً ماهر... أهلاً ماهر.

كم تخيلت لحظة اللقاء هذه، ولكن ما لم أتخيله أبداً هو أن يكون صديقي ماهر الذي عرفته منذ سنوات، إنساناً من ذوي الاحتياجات الخاصة... لم يخبرني بذلك يوماً ولم يلمّح إلى ذلك أبداً.

لاحظ ماهر دهشتي التي توقعها بالتأكيد فعلّق ضاحكاً: إنسَ أمر هذا الكرسي يا صديقي، ليس على الشاعر بالضرورة أن يلقي قصائده واقفاً.

شعرتُ بحرج بالغ لملاحظته، ولتذكيره إياي بمناسبة لقائنا، فاعتذرت منه وهنأته بفوزه بالجائزة، فشكرني على تلبيتي دعوته وطلب مني بمرح أن أساعده بدفع كرسيه المتحرك ففعلت، اصطحبني إلى منزله القريب حيث عرفني بأفراد أسرته الذين استقبلوني بكل حفاوة ومحبة حتى شعرت وكأنني واحد منهم.

وعند المساء حضرتُ حفل التكريم الرائع، وتأثرت بالقصائد الأروع التي ألقاها صديقي خلاله، ثم أمضيتُ يومين للذكرى خيّل إلي خلالهما أن ماهر لم يترك مكاناً في حلب إلا واصطحبني إليه، قلعتها الشامخة... أسواقها العامرة... أحيائها الجميلة... أدركتُ مما شاهدتُ سرّ شهرة هذه المدينة العريقة.

أما الاكتشاف الأهم فكان صديقي ماهر... لقد اكتشفت في شخصية صديقي القديم جوانب جديدة مدهشة جعلتني أتجاوز صدمتي باكتشاف إعاقته بسرعة لم أتخيلها.

لقد اكتشفت أنه شخص مميز جداً قد حقق الكثير في عدة مجالات، لمستُ ذلك من خلال الاحترام الذي كان يلقاه من الجميع في كل مكان زرناه، فخلال حفل التكريم، لاحظت شعبيته الكبيرة في أوساط الفعاليات الثقافية والأدبية في المدينة، وحين اصطحبني إلى نادي الشطرنج اكتشفت أنه بطل محافظته وسيّدها المطلق في هذه اللعبة، أما حين زرنا أحد دور الأيتام، ففاجأني بأنه أحد أبرز الناشطين في جمع التبرعات للمؤسسات الخيرية، ورأيت حجم ما أنجزه في هذا المجال بادياً بوضوح في عيون الأطفال الذين تراكضوا نحوه بفرح فور رؤيتهم له.

كل ذلك، بالإضافة إلى طيبته ولطفه البالغين وتواضعه الشديد، جعل منه الشخص المميز الذي اكتشفته.

لقد تعلّمت من صديقي ماهر أهم دروسي في الحياة... علمني كيف يمكن لإرادة الإنسان أن تتجاوز كل الصعاب مهما كانت الظروف، فتحوِّل اليأس أملاً والمعاناة سعادةً والمستحيل ممكناً.

* * *

حماة البحيرة

منذ اللحظات الأولى لوصول أعضاء معسكر الكشافة إلى موقع التخييم عند ضفة البحيرة، أدركوا أن المهمة الملقاة على عاتقهم هذه المرة مختلفة عما سبق لهم التعامل معه من مهام، كانت أكوام القمامة تغطي مساحة كبيرة من شاطئ البحيرة مسببة انبعاث روائح كريهة جداً في الأنحاء، صحيح أنهم أعضاء معسكر كشافة بيئي قد سبق لهم التعامل مع العديد من أشكال التلوث البيئي، ولكنها المرة الأولى التي يواجهون فيها مشكلة بهذا الحجم، ما من أحد منهم قد توقع أن يحوي مكان ريفي جميل هادئ كهذا، كل هذا الكم من التلوث... كيف ومن أين تجمعت كل هذه النفايات؟ سؤال خطر في بال الجميع، كل ما قيل لهم هو أن الطبيعة الجغرافية للمكان حيث تنحدر سفوح الجبال بشدة لتتصل بشاطئ البحيرة تحول دون شق طرقات تتيح وصول آليات جمع القمامة ما يجعل الطريقة اليدوية هي الوسيلة الوحيدة حالياً للتعامل مع هذه المشكلة التي باتت تهدد النظام البيئي للبحيرة.

ساد شيء من التجهّم والخيبة وجوه معظم الفتيان، كانوا قد توقعوا شيئاً مختلفاً ومنّوا النفس ببعض العمل والكثير من المتعة والتسلية كما في المعسكرات السابقة بالإضافة إلى الاستمتاع بالسباحة في البحيرة، ولكن الأمور تبدو غير ذلك.

اثنان منهم فقط لم تفاجئهما طبيعة المهمة... حسام وعلاء، هما من زهرة الوادي، القرية الأقرب إلى موقع المعسكر ويعرفان مسبقاً ما ينتظرهما وزملائهما، وكانا بطبيعة الحال من أشد المتحمسين لاختيار هذه المهمة منذ البداية.

كالعادة، وبعد جولة استطلاعية لجهاز الإشراف على المعسكر في المنطقة، دعا المشرف العام الجميع لاجتماع ووجه لهم خطاباً أوضح فيه طبيعة المهمة وخطة العمل المقررة:

أعزائي الكشافة... أعلم جيداً أنكم فوجئتم بحجم وطبيعة المهمة الملقاة على عاتقنا والمختلفة بعض الشيء عن مهام معسكراتنا السابقة ولكنكم تعلمون طبعاً أن الصعوبات والمشاق جزء دائم من برامج معسكراتنا هذه الهادفة لتنمية وعيكم وتطوير قدراتكم ومواهبكم للتعامل حالات كهذه، المهمة صعبة حقاً

ولكنها تستحق العناء بالنظر لأهميتها، وأطمئنكم أنكم ستجدون ما يكفي من المتعة والتسلية أثناء تنفيذها، وإليكم أهم الخطوات التي سنتبعها

أولاً سنستغل بقية اليوم لنصب الخيام وتجهيزها في هذه الساحة الصغيرة التي تبدو المكان الوحيد المناسب في هذه الأرض الوعرة، وبخلاف العادة ستكون الخيام مستودعات لمعداتنا وأمتعتنا فقط أما بالنسبة لإقامتنا ومبيتنا فيجب أن تكون في مكان ما في العراء بعيداً عن هذه الروائح الكريهة حرصاً على صحتنا، وعلى مجموعة الاستطلاع البدء بالبحث فوراً عن مكان مناسب لذلك في سفح الجبل،ثم سنباشر العمل غداً بعد أن نتوزع على أربع مجموعات تتولى كل منها إنجاز جزء من العمل، المجموعة الأولى ستكون مهمتها فرز النفايات التي يمكن الاستفادة منها عبر إعادة تصنيعها كالعلب المعدنية والزجاجية وغيرها والثانية ستقوم بتعبئتها جميعاً في أكياس محكمة والثالثة ستتولى مهمة نقلها إلى أقرب نقطة يمكن للآليات الوصول إليها لترحيلها، أما المجموعة الرابعة فستعمل على استصلاح الأرض

الملوثة وفرشها بالتربة النظيفة الصالحة للزراعة، ختاماً أذكركم أحبتي بأهمية اتباع قواعد الصحة والسلامة التي تعرفونها جيداً كتعقيم المياه واستخدام الكمامات وغيرها، والآن أيها الشباب إلى العمل.

ارتفعت معنويات الفتيان وانطلقوا إلى مهامهم، وخلال لحظات غدا مكان التخييم خلية نحل.

مع حلول المساء كانوا قد أتمّوا تجهيز المعسكر ثم توجهوا إلى نقطة الإقامة التي اختيرت وجهّزت بعناية قرب جدول صغير تظلل ما حوله مجموعة من الأشجار الحراجية حيث أشعلوا النيران وتناولوا عشائهم ومن ثم استمتعوا بأولى سهراتهم التي يحبونها، والتي قدّم خلالها كل من علاء وحسام شرحاً مفصلاً عن تاريخ زهرة الوادي وبقية القرى المجاورة للبحيرة وطبيعتها الساحرة ومدى ارتباط حياة أهلها على مر السنين بوجود البحيرة، منها يشربون ويسقون مواشيهم ومزروعاتهم، ويصطادون الأسماك، ثم كيف بدأت مشكلة تلوثها بالظهور مع تزايد أعداد الزوار والسياح القادمين للاستمتاع بسحر

الطبيعة على ضفافها وانتشار العديد من المطاعم والاستراحات المخصصة لاستقبالهم حيث كان لإهمال وقلة وعي القائمين على هذه المطاعم الدور الأكبر بتفاقم المشكلة حين راحوا يلقون بنفاياتهم في مكان قريب توفيراً للوقت والجهد بدلاً من نقلها بعيداً إلى المكان المخصص لذلك، وهنا سأل أحد المشرفين علاء:

- ألم يحاول أحد ما تنبيه هؤلاء إلى خطورة ما يفعلون ومدى الضرر الذي سينجم عن تلوث البحيرة وما حولها وانعكاسه على الجميع؟

أجاب علاء:

- بلى... حاول بعض العقلاء ذلك دون جدوى، كان همّهم الأول استغلال موسم الصيف لجني ما أمكنهم من الأرباح دون النظر لأية اعتبارات أخرى.

سأل أحدُ الفتيان:

- فما الجدوى إذاً من سعينا للتخلص من هذه النفايات طالما أن هناك من سيستمر في التصرف على هذا النحو وخلق

ذات المشكلة عاماً بعد آخر؟ ألا يجدر بنا البحث عن حل جذري لها.

أجابه المشرف العام على الفور:

- أصبت يا بني، لقد أخذنا ذلك بعين الاعتبار ولدينا خطتنا المناسبة بهذا الشأن، لن نسمح بأن يضيع جهدكم سدى، فلا تقلقوا.

في نهاية السهرة كان جميع الفتيان متلهفين لإنجاز المهمة ومعرفة الخطة المعدة للحفاظ على الإنجاز.

اعتباراً من فجر اليوم التالي وعلى مدار الأسبوعين التاليين، انهمك الجميع في العمل الشاق، كان برنامج عملهم اليومي مقسم إلى قسمين، يبدأ الأول بالاستيقاظ قبل طلوع الشمس وتناول الفطور ومن ثم العمل بشكل متواصل حتى الظهيرة حيث يأخذون قسطاً من الراحة يتناولون خلالها طعام الغداء ويستمتعون بالسباحة في البحيرة وممارسة بعض النشاطات والهوايات إلى أن تميل الشمس نحو المغيب، عندها يعودون لمتابعة الجزء الثاني من يوم العمل الذي لا ينتهي إلا مع حلول

الظلام وبذلك يتجنبون العمل تحت أشعة الشمس الحارقة، وبعد الاستحمام وتناول طعام العشاء يقضون الجزء الأحلى من يومهم في السهر والسمر حتى موعد النوم.

كانوا يعملون بينما عيون أهالي القرية وزوارها تراقبهم بإعجاب وامتنان، قام بعضهم بالتعبير عنه بتقديم المشروبات الباردة والمنتجات الريفية من خبز وفواكه وغيرها لهم.

وهكذا... وبعد أسبوعين من العمل الدؤوب المتواصل، اختفى مكب النفايات القذر وحلت مكانه مساحة من التربة المزروعة بشتى أنواع الشجيرات والورود، انتصبت في وسطها لوحة خشبية كُتب عليها بخط جميل ملون: (حديقة الشاطئ)، راح الفتيان يتمشون فيها، فخورين بحجم إنجازهم، متلهفين لسماع التعليمات بترك الجبل والانتقال للإقامة في خيامهم عند ضفة البحيرة حيث سيتفرغون خلال الأسبوعين المتبقيين حتى نهاية المدة المحددة للمعسكر للّهو والاستمتاع بالسباحة وصيد الأسماك دون واجبات تذكر، ولكن الاجتماع بالمشرف العام للمعسكر حمل إليهم تعليمات غامضة:

- أبنائي الأعزاء... أشكركم على الجهد الجبار الذي بذلتموه، لقد أنجزتم المهمة على أحسن وجه وفي وقت قياسي، إنني فخور بكم، والآن... وفيما عدا بعض المهام الصغيرة التي سنحتاج بعضكم لأدائها، لكم كامل الحرية في اختيار كيفية استمتاعكم بأوقاتكم خلال الأيام المتبقية، ولكننا لأمر تقتضيه خطتنا للحفاظ على حديقتنا، يجب ألا تكون إقامتنا قريبة منها، من الضروري أن تبدو خالية تماماً وخصوصاً في الليل، لذلك سنضطر للبقاء في الجبل، أكرر شكري لكم ولحسن تفهمكم.

تقبّل الفتيانُ الأمر، بكل الأحوال هم ألفوا الإقامة في الجبل وأحبوها، المهم أن وقتهم بأكمله سيكون ملكهم بعد أن أنجزوا المهمة الأصعب.

بعد الاجتماع مباشرة، استدعي عدد من الفتيان ومن ضمنهم علاء وحسام للقاء المشرف العام الذي سلّمهم ملصقات جميلة تدعو للحفاظ على نظافة البيئة وطلب منهم توزيعها في مختلف أنحاء القرية وخصوصاً حول المطاعم والاستراحات.

أما علاء وحسام فكانت مهمتهما مختلفة... كان عليهما مراقبة حديقة الشاطئ خفيةً في الوقت المعتاد لرمي نفايات المطاعم ليلاً بعد مغادرة الزوار، والتعرف على هوية الأشخاص الذين يقومون بذلك دون التعرض لهم.

وفي الصباح لم تبدُ على وجه المشرف أية من علائم الدهشة أو المفاجأة حين أبلغه بعض الفتيان - بحنق - عن وجود العديد من أكياس القمامة ملقاة في أنحاء الحديقة، بل ابتسم وطلب منهم نقلها إلى المكبّ دون تذمر.

ولكن في الصباح التالي ورغم وجود أكياس قمامة أخرى عند الحديقة إلا أن معالم الخطة بدأت بالاتضاح عندما قرأ أهالي القرية ملصقات موزعة في أنحاء قريتهم مذيلة باسم (حماة البحيرة) تشكرهم على التزامهم بالحفاظ على نظافة بيئتهم ولكنها تستثني منهم أشخاصاً أشارت إليهم بالأحرف الأولى من أسمائهم، صنفتهم تحت مسمى (اللائحة السوداء لهواة القذارة)، وضجّت القرية بالتخمينات حول هوية أولئك الهواة للقذارة.

وفي اليوم الثالث بدأت النتائج الإيجابية بالظهور بتناقص عدد أكياس القمامة قرب الحديقة فتناقص في اليوم التالي على الفور عدد هواة القذارة في اللائحة السوداء.

وهكذا... خلال أيام قليلة اقتصرت اللائحة السوداء على أربعة أشخاص فقط بدوا مصرّين على رفض التقيد بتعليمات حماة البحيرة فكان لا بدَّ من التعامل معهم بأسلوب آخر مبتكر، ذات صباح وجد هؤلاء أنفسهم ضحية حملة تشهير صريحة أفصحت عن مواهب حماة البحيرة عندما صدرت اللائحة السوداء هذه المرة معلنة أسمائهم ضمن أبيات من شعر الهجاء الساخر بفضح تصرفاتهم ثم تلتها لائحة أخرى كانت عبارة عن رسوم كاريكاتورية تصورهم يقومون بتصرفات تبين عدم احترامهم لقواعد النظافة العامة والشخصية أيضاً مع تعليقات ساخرة وطريفة، حتى غدت هذه الملصقات بمثابة التسلية المفضلة لأهالي زهرة الوادي وزوارها كل صباح.

حتماً... ما كان لهواة القذارة هؤلاء أن يحتملوا سخرية وازدراء الجميع لهم إلى ما لا نهاية، فلم يطل انتظار حماة البحيرة لذاك الصباح الذي خلت فيه حديقة الشاطئ وما حولها من أية

قمامة، يومها... قام حماة البحيرة بتوزيع ملصقهم الأخير الذي شكروا من خلاله كل من ساهم في إنقاذ ضفة البحيرة من التلوث وقدموا التهنئة لهم بهذا الإنجاز العظيم.

المفاجأة الكبرى كانت بانتظار أعضاء معسكر الكشافة في الليلة الأخيرة لإقامتهم في المنطقة عندما قام وفدٌ من أهلي القرية بزيارتهم في المعسكر حاملين لهم دعوة من أهالي القرية لحضور حفل تكريم قرر الأهالي إقامته على شرف ضيوف القرية الذين قدموا مثلاً يحتذى في التعاون ما زال أبناء المنطقة بأسرها يعتبرونه مفخرة لهم ويحفزّهم ليكونوا جميعاً الحماة الحقيقيين لبحيرتهم الغالية.

* * *

صافرة الإنذار

في قرية صغيرة تحيط بها الجبال والغابات من جهات ثلاث وبحيرة صغيرة من الجهة الرابعة كان ورد يعيش مع أسرته... تلك البحيرة كانت محطة دائمة لمختلف أنواع الطيور المهاجرة التي تحط على شواطئها في مواسم هجرتها فتروي ظمأها من مائها العذب وتبيت الليل بين الأشجار القريبة منها، ولذلك كانت هذه البحيرة في مواسم هجرة الطيور مقصداً لكل صيادي الطيور في المنطقة الذين يأتون إليها مع طلوع الفجر عندما تبدأ تلك الطيور التي أمضت الليل بين الأشجار بالتوافد إلى الماء جماعات لتروي ظمأها قبل أن تتابع رحلتها الطويلة، كانت مواسم هجرة الطيور هذه جزءاً معتاداً من حياة أهالي المنطقة، وخصوصاً الصغار منهم كزيدٍ وإخوته، الذين اعتادوا كل عام أن يمضوا الكثير من الأوقات الممتعة لشهر ونصف أو أكثر بمراقبة أسراب الطيور المحلقة في السماء بانتظام يثير الدهشة، والتنافس في محاولة التمييز بين أنواعها، هل هي طيور إوز أم بط أم بجع؟

ذات يوم من أيام مواسم هجرة الطيور تلك كان ورد يتجول قرب البحيرة عندما سمع صوتاً خافتاً كأنه صوت طير ما.

راح يبحث بين الشجيرات والأعشاب عن مصدر الصوت حتى وقعت عيناه على طير صغير الحجم غريب الشكل... اقترب منه ببطء وحذر... اقترب أكثر ولكن الطير لم يهرب منه كعادة الطيور، فما كان من ورد إلا أن مدّ يده نحوه رويداً رويداً حتى لامس ريشه الأبيض الناعم ثمّ أمسك به بلطف، كان الطير غير قادر على الطيران لسبب ما، بدا ضعيفاً وهزيلاً جداً.

فرح ورد كثيراً، حمل الطائر الصغير بين يديه وركض به إلى البيت طالباً المساعدة من أمّه التي تفحصت الطير باهتمام ثم قالت له: إنها بجعة مسكينة مصابة بكسر في أحد جناحيها، ولهذا السبب تخلّفت عن متابعة الرحلة مع سربها، يبدو أنها لم تأكل منذ أيام.

- ألا يمكننا مساعدتها؟ سأل ورد أمه.

- لا أدري... سنفعل ما بوسعنا يا بني.

قامت أم ورد بربط جناح البجعة بضماد وعلّمت ابنها كيفية التعامل معها وإطعامها وسقيها دون أن يلحق الأذى بجناحها المصاب فواظب ورد على العناية بها بكل اهتمام وحرص لأيام عدة كانت البطة خلالها تستعيد عافيتها شيئاً فشيئاً.

وبعد حوالي أسبوعين فكّت أمّ ورد الضماد عن جناح البجعة، كان قد شفي تماماً... فقالت له:

- ها قد غدت بجعتك قادرة على الطيران مجدداً... دعها تطير علّها تستطيع اللحاق بسربها،اعترض ورد قائلاً:

- لا... لن أدعها ترحل، أريدها أن تبقى عندي.

أوضحت له أمه بأن البجع طائر برّي ومن غير المناسب تربيته مع الدجاج لأنه يحب العيش في البرية مع بني جنسه وهو في كل الأحوال لا يصلح للأكل فلا فائدة ترجى من تربيته.

اقتنع ورد بكلام أمّه فحمل البجعة بلطف بين يديه وقذفها في الجو بلطف فطارت البجعة عالياً جداً ودارت في السماء دورة واسعة ثم عادت وحطت على جذع شجرة السنديان قرب خم

الدجاجات حيث اعتادت أن تنام في الأيام الماضية، حملها وأعاد الكرة ثانية فعادت مرة أخرى وحطت على ذات الجذع، حمل ورد البجعة وراح يداعب ريشها الأبيض الناعم بحنان وهو يقفز فرحاً قائلاً لأمّه:

- أرأيت؟ لا تريد الذهاب... تريد البقاء عندي، فابتسمت أمه قائلة:

- حسناً... كما تريد يا بني.

هيأ ورد لبجعته مكاناً خاصاً مع الدجاجات وصارت تنام معهن كأنها واحدة منهن، أما أغرب ما كان من أمر البجعة فهي تلك الصداقة الغريبة التي جمعتها مع كلبه الأمين بوبي الذي كان يرافقها إلى البحيرة لتسبح وتأكل السمك في حال انشغال زيد عنها فيلعبان معاً وتطعمه بعضاً من الأسماك التي تصطادها بمهارة عجيبة، ولا يعودان إلى البيت حتى غروب الشمس أحياناً، كان ورد يحب بجعته وكلبه كثيراً.

بعد مضي عام تقريباً وعودة موسم هجرة الطيور حدث ذات يوم أن ذهب الكلب والبجعة إلى البحيرة عصراً كعادتهما،

ولكن على غير العادة، سرعان ما عاد الكلب وحيداً وراح ينبح بطريقة غريبة أدرك ورد من خلالها أن شيئاً ما قد وقع... كان بوبي ينبح بشدة باتجاه الطريق المؤدي إلى البحيرة فركض ورد على الفور خلف كلبه حتى وصل به إلى أحد أطراف البحيرة حيث وجد البجعة ملقاة بين الأعشاب مضرّجة بالدماء على إثر إصابتها بطلق ناري في صدرها، كاد ورد يفقد صوابه... حملها وركض عائداً إلى البيت وهو يبكي بحرقة وأعطاها لأمه متوسلاً إليها أن تفعل شيئاً ما لإنقاذها.

أدركت أمه على الفور أن البجعة المسكينة قد فارقت الحياة، فوضعتها جانباً وضمّت ابنها بحنان محاولة التخفيف عنه ومواساته.

كان موت بجعته العزيزة فاجعةً مؤلمةً بالنسبة له.

سأل ورد أمه والدموع تنهمر من عينيه: لماذا يقتل الإنسان بجعةً رغم أن لحمها غير صالح للأكل... إن معظم الطيور التي تأتي إلى بحيرتنا غير صالحة للأكل فما الغاية من صيدها؟

ولم تجد أمه جواباً شافياً لسؤاله هذا سوى المزيد من المواساة والعطف.

كان ورد يشاهد سابقاً في مواسم هجرة الطيور الكثير منها على شاطئ البحيرة مقتولاً برصاص الصيادين ويأسف لذلك ولكنه لم يكن يهتم كثيراً بالأمر أما الآن وبعد أن فقد بجعته فهو يدرك تماماً ما معنى أن تزهق روح كائن جميل لمجرد التسلية ويشعر بالحقد على كل من يفعل ذلك.

ومنذ تلك اللحظة بدأ يفكر بفعل شيء ما حيال ذلك، خصوصاً أن موسم هجرة الطيور ما زال في بدايته حيث سيتسلى الصيادون كالعادة بقتل الكثير من الطيور بلا رحمة، لم يذق طعم النوم تلك الليلة، وقبل الفجر كان قد توصل إلى فكرة قرر تنفيذها على الفور أخذ كلبه بوبي ومضى إلى البحيرة، كان يعلم أن الصيادين يكمنون حول البحيرة بانتظار توجه جموع الطيور نحو الماء كعادتها في هذا الوقت للانقضاض عليها، فكمن مثلهم... وعندما بدأت الطيور بالتوجه نحو الماء أطلق كلبه باتجاهها وركض خلفه وهو يصيح بأعلى صوته، خرق صياحه الممتزج بنباح كلبه صمت الفجر ففزعت الطيور وهبّت محلقةً عالياً في السماء.

سمع أصوات بعض العيارات النارية التي أطلقها الصيادون باتجاهها ولكنه لم ير أي منها يسقط فمن الصعب جداً اصطياد طائر أثناء طيرانه... لقد فوّت على الصيادين فرصة اقتناص الطيور بسهولة أثناء وجودها على الأرض.

كانت معظم الطيور قد غادرت المكان مبتعدة عن الخطر حين سمع صراخ الصيادين المحتجين على تصرفه، فعاد إلى البيت وهو يشعر أنه قد قام بعمل عظيم.

وفجر اليوم التالي فعل الشيء ذاته بحماسةٍ أكبر... ولكن عند الظهر حدث ما لم يحسب له حساباً حيث قام عدة رجال بزيارة والده بشكل غير اعتيادي... توجّس شرّاً من هذه الزيارة المفاجئة فدخل غرفته وأغلق الباب.

سمع بعضاً من حديثهم مع والده... كانوا مجموعةً من الصيادين قد جاؤوا إلى والده يحتجّون على تصرف ابنه، وفور مغادرتهم... ناداه والده وقال له:

- يا بني... إن هذه البحيرة ليست ملكاً لنا، إنها للجميع ولا يحق لنا أن نمنع الآخرين من الانتفاع بها بأي شكل،

ولا تنسى أنني أصطاد الطيور أحياناً لتأكلون من لحمها، ومهما فعلت فإن بجعتك لن تعود للحياة... تجاوز الأمر يا بني ودع ما تقوم به.

أجاب ورد بأدب:

- أعرف هذا يا أبي، ولكن هؤلاء الرجال لا يصطادون الطيور لإطعام أبنائهم كما تفعل أنت وإنما يفعلون هذا للتسلية فقط ولا يميزون بين طير يؤكل وآخر لا يؤكل، إنهم يتركون معظم صيدهم ليتحلل على ضفاف البحيرة يا أبي... هل يجوز ذلك؟؟

أجاب والده:

- ربما... ربما كان بينهم من يفعل ذلك، ولكن كل إنسان مسؤول عن تصرفاته، أنا أعرف صيادين أيضاً يمتنعون عن صيد أي حيوان إلا لفائدة معينة، ومهما يكن تصرف هؤلاء الرجال خاطئاً فلسنا مخوّلينً بردعهم عنه... هذه ليست مسؤليتنا.

فهم ورد مراد والده وامتثل لطلبه على مضض، وكان في الأيام التالية كلما سمع صوت عيار ناري عند الفجر، يتألم لذاك الطير الذي ربما قد أصيب لحظتها ويتذكر بحزن بجعته العزيزة.

كانت قصة ورد وما فعله انتقاماً لبجعته قد انتشرت في القرية وتعاطف الكثير من أصدقائه معه، أما في المدرسة فقد فاجأه مدرّس مادة العلوم الطبيعية بإبداء إعجابه بما فعله، وتشجيعه له شارحاً للتلاميذ أن الحفاظ على البيئة وأشكال التنوع الحيواني فيها هو مسؤولية الجميع،ومع نهاية الدرس قال لورد على انفراد:

- ما رأيك أن نلتقي عند البحيرة فجر غدٍ ونقوم بتجربة علميةٍ قد تنجح في تحذير طيورك من خطر الصيادين دوًن أن يلحظوا ذلك؟

سرّ ورد كثيراً باهتمام معلمه بالموضوع، وانتظر الموعد بفارغ الصبر، فاستيقظ قبل الفجر وتوجه إلى البحيرة فوجد المعلم قد سبقه إلى هناك.

قال له المعلم باسماً:

- لا بدَّ أنك متلهف لمعرفة طبيعة التجربة التي حدثتك عنها، ولعلك سألت نفسك عن الأدوات التي سنستخدمها للقيام بها، ثم أخرج من جيبه صافرةً صغيرةً وتابع قائلاً:

- بخلاف التجارب التي نجريها في مخبر المدرسة عادةً فهذه الصافرة هي كل ما يلزمنا لهذه التجربة... لقد أثبت علماء الحيوان يا ورد أن لمعظم الحيوانات ومنها الطيور قدرةً على التعلّم لا يستهان بها، إضافةً لقدرة الطيور الفائقة على سماع الأصوات، سنحاول أن نعلّمها أن تربط بين صوت هذه الصافرة الخافت وخطر الصيادين، وذلك عن طريق إطلاق صافرة معيّنة قبل كل إطلاق نار، وبتكرار هذه العملية مراراً ستتعلم الطيور أن تهرب عند سماعها صوت الصافرة لأنه سيتبعها إطلاق نار، ربما سيلزمنا بعض الوقت لذلك ولكن لنأمل أن تنجح التجربة في النهاية.

ومع بزوغ الفجر وقبل أن يطلق الصيادون أي طلقة نحو الطيور التي بدأت بالتوجه إلى الماء وضع المعلم الصافرة في فمه وأطلق صافرة خافتة جداً وطويلة ثم أتبعها بأخرى وأخرى إلى أن سمع صوت أول طلق ناري فتوقف عن الصفير وقال لتلميذه:

- هذا هو الدرس الأول لطيورنا... هيا بنا نمضي وغداً سنعود لنعلمها درساً جديداً.

سأله ورد:

- هل تظنّ حقاً يا أستاذ أن الطيور قد سمعت هذه الصافرة الخافتة؟

فأجابه المعلم بابتسامة: بالتأكيد... سمعتها بكل وضوح... لا تقلق، المهم ألا يسمعها الصيادون.

وفي اليوم التالي طلب المعلم من ورد أن يقوم هو بإطلاق الصافرة ففعل ذلك بسرور.

وراحا يكرران ذات العملية كل يوم... إلى أن بدأت أولى نتائج التجربة بالظهور عندما طارت بعض الطيور عند إطلاق الصافرة، فابتسم المعلم لورد الذي كاد يقفز فرحاً، وسأل معلمه:

- ولكن كيف ستتابع الطيور رحلتها دون أن تشرب الماء كعادتها؟ فأجابه: لا تقلق عليها... لا بدَّ ستجد طريقةً ما لحل هذه المشكلة... المهم أن تنجو من رصاص الصيادين.

ويوماً بعد يوم راحت أعداد الطيور التي تستجيب لصوت الصافرة تزداد بسرعةٍ، ومع اقترب موسم هجرة الطيور من نهايته، صار مجرد إطلاق الصافرة كفيلاً بجعل معظم الطيور حول البحيرة تهب محلقةً عالياً في السماء، متابعةً رحلتها بسلامٍ بعيداً عن خطر بنادق الصيادين الحيارى عن سبب هيجانها وهروبها قبل كل موعد صيد، فتسلل اليأس إلى قلوبهم وتناقصت أعدادهم بشكل كبير.

مع نهاية موسم هجرة الطيور قال المعلم لتلميذه:

- في الموسم القادم قد لا أكون معك... فلتكن هذه الصافرة سّرنا الجميل... الآن صار لديك السلاح الذي يمكنك من حماية أكبر عدد ممكن من طيورك من خطر الصيد الجائر.

واحتفظ ورد بالسر... واعتباراً من الموسم التالي، صار إنذار الطيور المهاجرة بالصافرة جزءاً من واجباته اليومية يقوم به بكل حماس، إلى أن يأس معظم الصيادين من الظفر بأي طائر بسهولة، فتركوا البحيرة نهائياً، وصارت البحيرة تحتشد كل عام

بأعداد هائلة من أسراب الطيور المطمئنة إلى أن هناك من يقوم بإنذارها من خطر الصيادين دائماً.

ومع كل موسم هجرة جديد كان ورد يتذكر بامتنان معلمه القديم الذي ترك القرية بعد أن علّمه سرّ الصافرة، فيشكره في سرّه على ما فعله لأجله ولأجل طيور البحيرة ولأجل ذكرى بجعته البيضاء الجميلة أيضاً.

* * *

يوم السّباق

منذ سنواته الأولى في المرحلة الابتدائية، بدأت موهبة شادي الرياضية تفرض نفسها في ساحة المدرسة وفي دروس الرياضة، ما كان لأحد من رفاقه أن يجاريه في أي سباق جري أو أي من تلك التمارين الرياضية التي تعتمد على السرعة، وعندما انتقل للمرحلة الإعدادية لفتت هذه الموهبة انتباه معلم التربية الرياضية الذي أولاها اهتمامه ومتابعته حتى جعل من شادي خلال فترة وجيزة بطل المدرسة الأوحد في سباقات الجري متفوقاً على المتسابقين الأكبر منه، فكان المرشح الأفضل لتمثيل مدرسته في بطولة مدارس المحافظة.

واستعد شادي للبطولة على مدى ثلاثة أشهر من التدريب المستمر بإشراف معلمه الذي ثابر على رعايته ورفع معنوياته وترسيخ ثقته بنفسه وبقدرته على تحقيق إنجاز غير مسبوق في تاريخ مدرسته.

ويوم السباق... سرعان ما أثبت شادي لمعلمه أن ثقته في محلها عندما حل في المركز الأول وبفارق واضح عن بقية المتسابقين، فحظي عند عودته إلى المدرسة باستقبال حافل من رفاقه ومعلميه يليق بلقبه الجديد: (البطل) كان سعيداً وفخوراً جداً بإنجازه ولقبه الجديد ولكنه لم يكن يدرك أنه كان قد خطا الخطوة الأولى فقط على طريق المستقبل الذي رسمه له معلمه... كان إيمان المعلم بقدرات تلميذه وآماله به أكبر بكثير من مجرد حصوله على لقب بطل مدارس المحافظة، فقبل نهاية العام الراسي بأيام، حدد له الهدف التالي الذي عليه الاستعداد له:

- اسمع يا بني... لقد تقرر أن تكون ممثل مدارس محافظتنا في بطولة المدارس على مستوى الجمهورية التي ستقام العام القادم في مدينتنا، أنا أثق بقدرتك على تحقيق الإنجاز الكبير... كلنا نثق بقدرتك.

سرّ شادي طبعاً بهذه الفرصة التي ستتيح له فرصة التقدم خطوةً أخرى على طريق البطولة والشهرة، ولكن ذلك يعني أن

عليه بذل الكثير من الجهد والمثابرة للارتقاء لمستوى بطولة كهذه يشارك فيها متسابقون على مستوى عال، كان عليه الخضوع لبرنامجٍ تدريبي يومي كثف سيمتد من بداية العطلة الصيفية وحتى موعد البطولة، وبمتابعةٍ حثيثةٍ لا تعرف الكلل من معلمه الذي كان لا ينفك يردد على مسامعه كلما ازدادت التمارين شدّةً وقسوةً، حكمته المفضلة: من جدّ وجد، هذه الحكمة التي كان عليه أن يلتزم بها بصرامة مع بداية العام الدراسي ليتمكن من التوفيق بين واجباته المدرسية وتدريباته اليومية في مضمار السباق، ولم يدخر شادي جهداً في سبيل تحقيق ذلك.

قبل أيام من موعد السباق وأثناء أحد تدريباته تلك، تصادف وجود متدرب آخر على المضمار تبين لاحقاً أنه حازم... الفائز بالبطولة ذاتها لعامين متتاليين والمرشح بقوةٍ للاحتفاظ بلقبه للمرة الثالثة، كان شادي قد سمع الكثير عن سرعة حازم وتفوقه الحاسم على منافسيه في البطولات السابقة، بدا ببنيانه المتين وقوامه الرشيق جديراً بسمعته كبطلٍ لا يجارى.

منذ تلك اللحظة، لم تفارق صورة حازم بقوامه الرياضي الممشوق ونظراته الواثقة، مخيّلة شادي... كان أكبر منه سناً وحجماً، للمرة الأولى يشعر أن ثقته بنفسه تهتز، وللمرة الأولى ينتابه الشكّ بقدرته على تحقيق الفوز، لم يكن قادراً على مجرد تخيل احتمال إخفاقه في تحقيق الفوز وما سيليه من خيبةٍ وخجل، وهو الذي لم يعتد أن يرى متسابقاً يصل خطّ النهاية قبله.

ثم كانت ليلة السباق... كان شادي بالغ التوتر والقلق، انتابته الهواجس فحرمته النوم لساعاتٍ تسلل فيها اليأس إلى عزيمته حتى أودى به إلى قرار خطير... بإمكانه صباحاً بكل بساطةٍ أن يدّعي المرض ويتخلص من هذا العبء الثقيل.

ولكن... في الصباح الباكر استيقظ على مفاجأةٍ غير متوقعة جعلته يتردد في تنفيذ ما عزم عليه بالأمس... إنه صوت معلمه الذي كان من المفترض به أن يكون بانتظاره في الملعب، كان المعلم يسأل عنه:

- أين بطلنا؟ ألم يستيقظ بعد؟

ثم كانت المفاجأة الثانية التي أطاحت بكل إمكانيةٍ لتنفيذ الخطة حين فوجئ بأن جميع أفراد أسرته - أبوه وأمه وشقيقيه فادي ولجين - قد قرروا مرافقته إلى الملعب، لم يكن ليخيب آمالهم جميعاً بكذبةٍ تافهةٍ، لا بدَّ من مواجهة التحدي.

برفقتهم جميعاً، دخل ميدان السباق، توجه برفقة معلمه نحو المضمار بينما أخذ أفراد أسرته أماكنهم على مقاعد المتفرجين، وبينما باشر ببعض تمارين الإحماء، سمع أصواتاً اهتز لها فؤاده، التفت صوب المدرجات فوقعت عيناه على مشهدٍ غمره تأثراً... كانت أسرته تتوسط مجموعة كبيرة من رفاقه ومعلميه يحملون لافتات التشجيع له ويهتفون باسمه بصوتٍ هادرٍ: شادي... شادي... شادي.

وقبل انطلاق السباق بلحظات، تقدم منه معلمه وهمس في أذنه قائلاً: أياً كانت نتيجة هذا السباق يا بني، فأنا على ثقة بأن المجد بانتظارك يا بطل، أنت الأفضل، أخذ مكانه على خط الانطلاق إلى جانب حازم وبقية المتسابقين وقد استعاد الكثير من ثقته بنفسه وامتلأ حماسةً وحيويةً.

وما إن دوت الصافرة معلنةً بداية السباق حتى انطلق المتسابقون بأقصى ما أمكنهم من السرعة وعيونهم جميعاً ترنو إلى خط النهاية، وسرعان ما انحصرت المنافسة بين اثنين منهم تاركين بقية المتسابقين خلفهما بمسافةٍ كبيرةٍ، أحدهما يحث خطاه سريعاً باتجاه خط النهاية والآخر على بعد خطوات منه يطارده بكل إصرار وعناد.

كان السباق يقترب بسرعة من مراحله الأخيرة، ورغم عجزه عن اللحاق بحازم المندفع كالسهم أمامه، ظلّ شادي مصراً على بذل جهده حتى خط النهاية الذي يقترب بسرعةٍ فائقةٍ.

قبل مسافة قصيرة من النهاية، وبينما ظنّ الكثيرون أن السباق قد حُسم لصالح البطل السابق كما كان متوقعاً تناهى إلى مسمع شادي صوت يعرفه جيداً يناديه: هيا يا أخي... هيا يا بطل... أنت الأفضل، إنها شقيقته الصغيرة، لجين الحبيبة.

شعر شادي بأن صوت شقيقته قد أمده بطاقةٍ هائلة سرت في جسده المنهك، قوة خفية تدفعه نحو الأمام كحصان سباق، وقبل خطوات فقط من خط النهاية، تجاوز خصمه واضعاً قدمه

على الخط الأحمر قبله، وليعلن الحكم فوز البطل الجديد الذي دوّت الهتافات باسمه.

تابع شادي الجري مندفعاً نحو المدرجات، فحمل لجين على كتفيه ودموع الفرح تسيل على خديه.

كان يوماً لن ينساه أبداً، شكّل نقطة الانطلاق الأهم في مسيرته الرياضية كبطلٍ رفع علم بلاده عالياً في العديد من البطولات الدولية الكبرى.

* * *

فهرس

الصفحة

ابتسامة أبي ٥

حكاية أبي الملح ١٢

إرادة وتضحية ٢٢

الصديق المعلّم ٣٠

حماة البحيرة ٣٧

صافرة الإنذار ٤٨

يوم السّباق ٦١

فهرس ٦٩

مالك يوسف عجيب

- من مواليد ٢٥/٢/١٩٧٦م.
- حائز على جائزة مسابقة وزارة الثقافة - مديرية ثقافة الطفل لعام ٢٠١٠م - مجموعة قصص موجهة للطفولة المبكرة بعنوان (الأرنب دحروج الشجاع) نُشِرَتْ من قبل وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب.
- حائز على جائزة وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب لعام ٢٠١٩م - قصة قصيرة الموجهة للطفل بعنوان (المركز الأول) نُشِرَتْ من قبل وزارة الثقافة- الهيئة العامة السورية للكتاب.
- نُشِرَ العديد من قصصه في مجلة أسامة.

٢٠٢١م